فأمامه وقت طويل بمفرده، هكذا تصرف المؤسس عندما اقتحمت قوة مدججة بيته وأحاطت به مع بداية المحنة الكبرى، لم يبد جزعًا، إنما وقف ثابتًا، مهيبًا حتى إن قائد القوة انحنى له وكف أفراده عن عبثهم بمحتويات المكتبة، لم تهتز منه أصبع وهو يعقد ربطة عنقه. . طبعًا ما أبعد الفارق، وما أشد اختلاف اللحظتين، ولكنه لم يتصور حدوث ذلك قط.

خلع النظارة الطبية على مهل، استبدلها بنظارة القراءة، بقدر الإمكان حرص ألا ينحنى بدرجة كبيرة، أن يُبقى ملامحه جامدة، ألا يدع سبيلاً لدقات قلبه المتهارعة، وما انفغر داخله من هوات لا قرار لها، التمويه. . الإخفاء ضرورى الآن في مواجهة ما لم يدر بخلده يومًا، ما رد فعل المؤسس لو أنه عاش حتى اليوم الذى يسمع فيه مثل ذلك؟ أى تعابير تبدو على ملامحه، وأى الألفاظ سينطق. .

إلى المقهى، إلى ركنه الأثير، المهم ألا ترتجف الخطى، ألا يهن، لن يسمح بارتجافه يد تهز كوب اليانسون الساخن، كلهم يتطلعون إليه بصمت مدو، كأنهم يعرفون السطور القليلة جافة الألفاظ، حادة الصياغة، سطور أجهزت على عمر امتد، وضنى بُذل. .

لكم يفتقد عطية بك الآن، جلسته، سماحته، رد الله غربته وأنهى سجنه وفك ضيقه. لو ظهر أمامه لتطلع إليه صامتًا وذرف دمعًا عزيزًا، كل منهما يفهم الآخر بالصمت.

لحظة اجتيازه عتبة البيت خبطت امرأته صدرها بيدها:

«ما لك. . ما لك يا سيدى. . ».

أم البنات لم تخف جزعها ولهجتها النادبة، الراثية ما قبل الأوان،